عودة المغترب

أدهشه منظر عمّان من الجوّ غادرها قبل خمسة عشر عاماً وهي مدينة مكتنزة على تلالها السبعة، ويعود إليها الآن وقد ترامت أطرافها فسبحت على الحقول المجاورة وصعدت سفوح التلال وتربعت على قمتها. من الغرب ارتبطت بمدينة صويلح ومن الشرق زحفت في الصحراء، ومن الشمال خالطت مدينة الرصيفة، ومن الجنوب اقتحمت حمى قرية الطيبة..

ولاح له المطار.. بناء ضخم ينهض على طرف الصحراء كأنه قلعة في تلك الصحراء لصد غارات الأعداء من المدن والقرى.

قال له جارة في الكرسي في الطائرة.

– هذا هو المطار.

– أجابه منكراً:

– المطار لم يكن في هذه الجهة، ولم يكن بهذه الضخامة.

أجابه جارة وهو يبتسم:

– هذا المطار الجديد، المطار القديم أصبح مخصصاً لرحلات العسكرية وبعض المهمات الخاصة.

قال كالمعتذر:

– نسيت.. لقد كتبت لي زوجتي قبل عشر سنوات تخبرني

– مما تخبرني – أن مطاراً ضخماً حديثاً قد بني في جنوب عمّان.

– حطت الطائرة، أجريت معاملات ختم الجوازات بسرعة، خرج القادمون إلى الصالة.. أخذ سعيد يمدّ بصره يترقب أسرته.. بعد تردد أقلت عليه سيدة في الخامسة والأربعين، حدّق فيها عرفها وأنكرها.. هي زوجته أم «جديد» لكنها تغيرت، جبينها بدا مخططاً بخطوط جلدية خفيفة، عيناها خَفَتَ بريقهما، خلف الحن؛ تَغَضُّنٌ يفصل بينه وبين مسيل الخد.. (لشد ما تغيّرت يا أمّ جديد)..

سلمت عليه بكنيته:

– كيف حالك يا أبا جديد.

– كيف حالك يا أم جديد؟ الحمد للّه الذي جمع بيننا بعد طول فراق.

ابتسمت فبدت حزوز على أطراف فمها، وقالت وهي تغض من بصرها:

– يستأهل اللّه الحمد:

وتقدم بعدها إليه شاب فارع الطول ذو لحية مستديرة.. تحيط بوجه كأنه صفحة بيضاء، قالت أم جديد:

– هذا جديد يا أبا جديد..

صافحه، انحنى الشاب عليه عندما همّ يتبادل القبلات مع

أبيه (ما شاء اللّه.. هذا جديد الذي تركته طفلاً في العاشرة، ها هو رجل مِلءُ السمع والبصر، أطول مني، أشد بياضاً، يبدو أنه ملتزم بالإسلام.. مثلي)

وتقدمت بعد فتاة ربعة شقراء قد غطت شعرها بخمار منقط يغلب على ألوانه اللون الأخضر كأنها أم جديد عندما خطبها قبل خمسة وعشرين عاماً، غير أنها أكثر صقلاً من أم جديد.

قالت أم جديد:

– ابنتك سناء.

سرّ بها، صافحها، وضعت يدها على رقبته، وقبلته بلهفة على وجنتيه وعلى الجبين... لشدّ ما تمنيت يا أبي أن تكون إلى جانبي وأنا في الجامعة، كنت أحتاج إلى علمك في الفيزياء، وهي المادة التي درستها – أنا – كما درستها أنت..

ابتسم، وأشار بيده وقال:

« تجري الرياح بما لا تشتهي السفن »...

بل بما لا تشتهي الأقمار.. مثلك..

وكانت تقف خلف سناء فتاة برونزية اللون، تلبس خماراً بنياً، تفرع سناء طولاً... قدمتها الأم فقالت:

– ابنتك سوسن، في السنة الأولى في الجامعة.

صافحته سوسن، ولاحظ وهي تقبل وجنته أنها تطاوله بل هي أطول منه قليلاً.. التّفَتِ الأسرة حول الوالد، أما هو فقد أدار

عينيه.. هنا وهناك فترقرقت في عينه دمعتان، سرعان ما جففهما.. نظرت الأم إليه فأخذت الدموع تنهمر من عيْنيها.. أحاط بها الأولاد عذلوها على بكائها في هذه الحالة..

– أهكذا نستقبل أبانا يا أماه؟

احتاجت الأم إلى دقيقتين حتى أفرغت شحنة الحزن في نفسها.. قال لها الولد:

– كيف صحتك؟

قالت وهي تغمض عينيها تحاشياً لأن تلتقي عيناها بعينيه:

– لا بأس، أصبح شاباً، في السابعة عشرة، كما تعرف، لقد سافرت وعمره سنتان، ولكن ضاوي الأطراف..

– ومن يعتني به؟

– كنا جميعاً؟ نعتني به، ولكن عندما بلغ الرابعة عشرة، وأصبح شاباً.. لم يعد من اللائق أن تتابع خدمته أختاه..

– هذا صحيح..

قال جديد:

– الحمد للّه يا أبي على كل حال لعلّ قد أتى بأخي بلال مشلولاً ليحط به من ذنوبنا، إن خدمة من يحتاجون إلى خدمة يكتب به للمرء حسنات ، وتحط عنه سيّئات... لا تيأس يا أبي، الحمد للّه،. سَرِّ عنك يا أبي..

في الطريق، بعد اليادودة إلى صويلح حيث تقيم الأسرة..

obeikandl.com

اندهش الأب من مناظر الدارات والقصور التي تنهض على جانبي الطريق، وعلّق:

– تغير الأردن في هذه السنونِ التي غبت فيها.. تدفقت الأموال في فترة الطفرة، ما بين عام ١٩٧٥ وعام ١٩٨٣... فأقام الناس الدارات والقصور.. أما كان يمكن للحكومة أن تضع سقفاً للحد الأعلى للمبلغ الذي يقام به السكن، حتى تتوفر الأموال للمشاريع العامة، لكي يُقضي على البطالة؟

نظر خالد إلى أبيه من زاوية عينه اليمنى وهو يقود السيارة، وعلقّ: للأسف، الحكومات المتعاقبة أخذت بالنظام الرأسمالي الغربي، فقاد إلى الهلاك..

وعلقّت سناء:

– في الغرب، وإن أطلقوا العنان لرأس المال، غير أنه حفظوا حقوق العمّال، لا كما في بلدنا...

وعّلقت الأم:

– في الحقيقة لا خلاص لبلدان العالم الثالث إلا باتباع النظام الاقتصادي الإسلامي، النظام التكافلي.. وعاد الأب يقول:

– بل لا خلاص للعالم كله، مما يتردّى فيه من ويلات، إلا بالإسلام.

وطُول الطريق جعل الأب يسأل الأسرة عن أحوال الجيران والأصدقاء وهم يجيبون حتى سأل عن جارهم أبي سليم فوجم

الجميع، كانوا يعرفون أنه صديق عزيز عليه.. نظر إليهم:

لِمَ لا تتكلمون...

واستمر الصمت:

قال الأب:

– أمات؟ فهم من هذا الصمت أنه مات.. أنغض الجميع برؤوسهم دلالة الموافقة.

– وكيف مات، كان كالحديد!

– أصابه مرض خبيث لم يمهله إلا ثلاثة أشهر.

في الدار.. أخذ الأب يقارن بين صورة العائلة المعلقة على الجدار التي التقطت قبل سفره بأسبوع، وبين ما أصبحت عليه الآن... (الأولاد كانوا أطفالا، فأصبحوا ناضجين وأم جديد كانت في عز الشباب فأصبحت أقرب إلى الشيخوخة منها إلى الشاب.. وأنا.. اتغيرت؟ نعم تغيرت ولكن قليلاً) وأحسّ أن نفسه تغص بشعورين متباعدين" هو سعيد مسرور لأن ابناءه قد أصبحو شباباً ولكنه مغمور بالأسى لأن الأيام تحمل في طياتها التغير ﴿ كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجهَهُ ﴾ ... أما كبرت أم جديد أما مات أبو سليم الذي كان كالحديد؟ أما كبرت عمّان وتمددّت حتى سالت على الحقول والتلال المجاورة.. بل أما أصبح المشرق العربي يجثم على حافّة بركان؟ أمريكا بأساطيلها، ومعها دول كثيرة تهدّد العراق، والعراق بعد اعتدائه على الكويت ينذر بأنه

obeikandl.com

سيحرق آبار النفط إذا ضربته أمريكا...؟

المنطقة بأسرها.. الجزيرة العربية، العراق، سورية، لبنان، إسرائيل، أصبحت مهددّه بالدمار الشامل... وقد كانت قبل شهر هادئة وادعه. ! الله كيف يغيّر الزمن الناس والأشياء والأحداث!!

obeikandl.com